مجلة الدراسات الإسلامية-جامعة كابل
Journal of Islamic Studies – Kabul University

نظرية النظم من الملامح إلى النضج دراسة تاريخية وصفية تحليلية مقارنة

الملخص: يعالج هذا المقال بنهج مقارن قضية ذات أهمية راقية في الدرس البلاغي، ألا وهي نظرية النظم التي ملأ صيتها آذان الدهر قرنا إثر قرن، ورجع الفضل في تبنيها ونضجها إلى عبد القاهر الجرجاني. يقوم المقال بتتبع ملامح هذه النظرية في عهود سبقت عصر الجرجاني تاريخيا، فيبحث عن جذورها، و ملامح ظهورها ونضجها في أعمال عباقرة القرون بشكل مقارن، يتم كل ذلك من خلال مبحثين اثنين، فيعرفنا في المبحث الأول ضمن مطلبين اثنين بحقيقة تلك النظرية، وأصالتها ومنبتها، ثم يبرز في المبحث الثاني مظاهر نموها ضمن ثلاثة مطالب، يبدأ بالحديث عن ملامحها وبوادرها بصورة واضحة مرقمة، من خلال دراسة جهود سيبويه في كتابه، كما يصرح ثانيا بمظاهر تطورها بأيدي علماء كل عصر بدءا من الجاحظ وابن قتيبة مارا بجهابذة هذا الفن الذين وصلتني أعمالهم بهذه المناسبة من أمثال الرماني، والخطابي والباقلاني ثم يتعرض ثالثا إلى مظاهر نضجها وكمالها بيد عبد القاهر الجرجاني. على الرغم من أن نظرية النظم قتلت بحثا منذ زمان، فقد ناقشها العلماء قديما، كما أن المعاصرين منهم ظلوا بها مولعين يناقشونها بهيام شديد يوما بعد آخر من وجهات النظر المختلفة إلا أن البحث حولها بشكل مقارن بين الأدوار المختلفة بقي موضوعا بكرا لم يتحمل أحد مؤنة مناقشته والتنقب عنه قبل هذا، فحاولت أن أبادر هذا الميدان، وأسد هذا الفراغ بجهدي المتواضع قدر الاستطاعة، لعله تفيد به المكتبة العربية شائقيها، وهذا هو الذي يثبت أصالة موضوع مقالتي، ويعتبر الجديد فيها، ويبرر بذل جهدي في هذا الموضوع التراثي القديم.

الكلمات المفتاحية: البوادر، تأسيسها، الملامح، نضجها، النظم.

الباحث:

الدكتور محمد قسيم آخند زاده، الأستاذ المشارك، بقسم اللغة العربية جامعة كابل.

الايميل: Akhoundzada@Gmail.com

تاريخ المادة:

تاريخ الإرسال : (١٦ /٢/ ١٤٤٦)

تاريخ الإصلاح: (١٤٤٦/٣/٤)

تاريخ القبول: (١٤٤٦/٣/١٨)

The Theory of Verse from Origins to Evolution: A Comparative Historical Analysis

ABSTRACT: This article employs a comparative method to examine a highly valued concept in rhetorical science known as the "theory of regularity" or "theory of arrangement." The study is divided into two chapters and acknowledges Sheikh Abdul Qahir Jarjani, a prominent ٥th-century Hijri scholar, for refining and completing this theory. The research comparatively explores the scientific contributions of scholars preceding Sheikh Abdul Qahir al-Jarjani, highlighting key topics that were instrumental in developing this theory and upon which Sheikh Jarjani built his comprehensive scientific framework. The article traces the theory's origins in Sibuyah's work and examines its emergence in the contributions of third-century Hijri scholars such as Sheikh Jahiz and Ibn Qutiba. Furthermore, the study investigates relevant scientific works from the fourth-century Hijri, clearly delineating the sequential developments that played a constructive role in the theory's evolution. The article then focuses on Sheikh Abdul Qahir Jarjani's tireless scientific efforts, detailing how these contributions culminated in the theory reaching its stage of perfection and gaining recognition as a scientific theory. While scholars have consistently researched this topic, to the author's knowledge, no comprehensive comparative study has been undertaken. This approach lends originality and innovation to the present article, offering a unique perspective on the historical development of the verse theory.

Keywords: Emergence, Establishment, Evolution, Origins, Symbols

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام على حبيبه وصفيه محمد وعلى آله و أصحابه الطيبين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد! فإن نظرية النظم من أهم النظريات البلاغية التي اشتهرت منذ عهد قديم بين العلماء، وهي نظرية أثارها الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر من علماء القرن الثالث الهجري لأول مرة في تاريخ علم البلاغة. بذر الإمام نواة هذه النظرية ضمن بحوثه عن وجوه إعجاز القرآن الكريم، وخص بها تأليفه في موضوع الإعجاز باسم نظم القرآن، فأقام عليها مذهبه في هذه القضية، وعارض بها نظرية الصرفة التي اشتهر نشأتها بيد إبراهيم بن سيار أحد كبار مذهب الاعتزال في عهده وأستاذ الجاحظ. فتداولها العلماء في مجالسهم العلمية فيما بعد جيلا بعد جيل بأشكال مختلفة، وعناوين متباينة حتى وصلت إلى عهد عبد القاهر الجرجاني، فسجل هو نضجها وإكمالها باسمه في كتاب سماه بـ (دلائل الإعجاز).

أهمية الموضوع:

موضوع بحث هذا المقال هو تتبُّع مظاهر نمو نظرية النظم التي بدأت بوادرها في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وأخذت تمر في مجالس العلماء عبر قرون طويلة بمراحل ؛ وهي نظرية مهمة تحدد المعالم التي يتبين بها التفاضل بين أساليب التعبير اللغوي قوة ورونقا ، ويقوم على أسسها التحكيم في مجال النقد الأدبي.

أسباب الاختيار:

اشتهر بين الدارسين أن عبد القاهر الجرجاني هو الذي بلغ بهذه النظرية مرحلة النضج والكمال عبر جهوده في مجال البلاغة، فحدد النظم وعرفه، وبين أسسه، ورسم حدوده ومعالمه، ووضع بجهده هذا نقطة النهاية للبحث في هذا الموضوع، إلا أن موضوع نشأة هذه النظرية، ثم نموها وتطورها في تاريخ البحث البلاغي حتى بلغت النضج والكمال، كان ولازال في حاجة إلى مزيد من البحث والتنقيب، فأردت أن أتتبع ملامح هذه النظرية في أثار من سبق عهد الجرجاني؛ لنتثبت من عهد نشأتها، ونتعرف بمن عمل في تطورها، و نتأكد عن مقدار سهم كل من بذل فيها جهده قبل نضجها.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى معرفة أمور أهمها ما يلي:

١ – مدى عمق بوادر نظرية النظم في الدرس اللغوي والبلاغي عبر العصور؛

٢ – مدى إسهام كل عصر في نمو هذه النظرية؛

٣ – مظاهر إسهام كل عصر في نموها؛

٤ – مظاهر كمال النظرية ونضجها بيد عبد القاهر الجرحاني.

أسئلة التحقيق:

تجيب هذه الدراسة على أسئلة قد تخطر ببال الدارسين حول نظرية النظم، منها مايلي:

أنشأت نظرية النظم ناضجة بيد عبدالقاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري بغتة أم لها جذور ممتدة في عمق تاريخ الدراسة اللغوية؟

ما هي الأطوار والمراحل المحتملة التي مرت بها هذه النظرية ؟

من المحتمل أن تمر أي نظرية علمية على مرحلة تبدو فيها ملامحها، ثم تظهر للوجود، ثم تنضج، فمتى لمعت ملامح النظم كنظرية علمية؟

ومن الذي يمكن أن نلمح بوادر تلك النظرية في جهوده العلمية؟

ومتى ظهرت تلك النظرية للوجود لأول مرة؟

ومن هو ذلك المفكر الذي ظهر لأول مرة لفظ النظم كمصطلح علمي في جهوده العلمية؟

ومن أدلى بدوله فيما بعد في تلك المعمعة العلمية حتى وصل نتيجة جهده، مصطلح النظم إلى النضح والكمال، وظهر أخيرا كنظرية علمية ذات أصول ومبادئ؟

الدراسات السابقة:

قام بعض من العلماء المعاصرين بدراسات جديدة مضارعة لموضوعنا حول نظرية النظم، نذكر بعضها فيما يلي :

١ – مراحل تطور نظرية النظم من سيبويه إلى عبد القاهر، مقالة أعدها فضيلة الدكتور حسين عبد الله الموساي مشبب الغزاري ونشرها في مجلة الأندلس، العدد العشرين، المجلد الخامس، (أكتوبر ديسمبر ٢٠١٨)

٢ – مقالة بعنوان (نظرية النظم عند عبد القاهرالجرجاني) نشرت في مجلة دعوة الحق، العدد/ ٧٧.

٣ – نظرية النظم عند الجرجاني معناها ومبناها، مقالة أعدها حياة دريش.

منهج الدراسة:

اتبع الباحث في دراسة هذا الموضوع منهجا تاريخيا وصفيا، تحليليا، مقارنا، حاول أن يتابع الموضوع في أمهات الكتب التراثية للبحث عن الأطوار التي مرت بها نظرية النظم من بدء ملامحها، وظهورها كنظرية، إلى غاية نضجها وكمالها، فبذل قصارى جهده أن يناقش كل رأي مناقشة علمية أمينة في ضوء فهمه، وينسبه لصاحبه في الهامش أسفل الصفحة.

المبحث الأول:حقيقة نظرية النظم، أصالتها ومنبتها:

قبل الخوض في تأصيل النظرية العلمية وبيان أصولها ينبغي البحث عن حقيقتها، والتعرف على أصلها، عبر التنقب عن جذورها وأصولها اللغوية.

المطلب الأول: التعريف بالنظم:

أولا– النظم في اللغة: ورد النظم في القواميس بمعنى التأليف، ووضع الشيء إلى جانب غيره، وضمه إليه، يقال: نظم فلان اللؤلؤ يَنْظِمه نَظْما إذا ألفه، وجمعه في سلك، وقد يطلق النظم ويراد به المنظوم من الكلام أيضا، وهو من قبيل

إطلاق المصدر بمعنى اسم المفعول. فـ(النَّظْمُ : التأليف، وضمّ شيء إلى شيء آخر والْمَنْظومُ ... ونظَم اللُّؤْلُؤَ يَنْظِمه نَظْما ونِظاما ونظَّمه: ألَّفه وجمَعه في سِلْك، فانْتَظم وتَنَظَّم)[١].

وقد جاء في لسان العرب أن النَّظم هو التأْليف، يقال: نظَمَ الشيء (يَنْظِمه نظْما ونِظاما، ونظَّمه فانْتظم وتنظَّم، ونظمتُ اللؤْلؤَ أي جمعته في السّلك، ... ومنه نظمتُ الشِّعر ونظَّمته، ونظَم الأَمر على المثَل، وكلُّ شيء قرنتَه بآخر، أو ضممْتَ بعضه إلى بعض فقد نظمْته، والنَّظْم الْمَنْظوم وصف بالمصدر، والنَّظْم ما نظَمْته من لؤلؤٍ وخرز وغيرهما)[٢].

ثانيا– النظم اصطلاحا: النظم في الاصطلاح ليس (شيئا غير توخّي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم)[٣] فهو يتكون نتيجة إحكام التآخي فيما بين عناصر الكلام بمراعاة معاني النحو وأحكامه في ذلك التآخي على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام، فهو حسن ترتيب الكلمات فى الجملة، بحيث تكون كل كلمة في محلها المناسب الذي يقتضيه لها غرض الكلام ويطلبه، وحسن ترتيب ألفاظ الكلام تابع لحسن ترتيب المعاني التي يتوخاها المتكلم أولا في الذهن [٤].

المطلب الثاني– منبت نظرية النظم:

نبتت نظرية النظم لأول مرة في تربة البحث عن الإعجاز القرآني، لقد احتدم الجدل والنقاش حول وجوه إعجاز القرآن منذ أواخر القرن الثاني الهجري وذلك بعد أن بدأ بعض أهل العلم من المتكلمين يذهب إلى أن القرآن مخلوق. ارتسمت فكرة خلق القرآن لأول مرة في تاريخ الفكر الإسلامي على صفحة ذهن الجعد بن درهم المتوفى قتلا سنة ١١٨من الهجرة، أخذ الجعد تلك الفكرة من بيان بن سمعان [٥]، الذي استقاها من طالوت ، وانتقلت إلى طالوت من لبيد بن أعصم اليهودي. فقال بذلك القول جَهْم بن صفوان الترمذي زعيم فرقة الجهمية الجبرية المتوفى عام(١٢٨هـ) قتلا. وممن قال به بشر بن غياث المريسي المتوفى عام (٢١٨هـ). فأخذت الفكرة تنتشر أوساط المذهب الاعتزالي، وعن طريق أتباعه تسربت إلى قصر الخلافة، واعتنقها بعض الخلفاء العباسيين. فكان الناس في تلك المسألة في عصر هارون

---

[١] – الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط:٨، بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة، ٢: ١١٦٢.

[٢] – ابن منظور، جمال الدين، ١٤١٤هـ، محمد بن مكرم،ط٣، بيروت، لبنان: دار الصادر، ١٢: ٥٧٨.

[٣] – الجرجاني، عبد القاهر بن عبدالرحمن، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، دلائل الإعجاز، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط:١، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ص: ٢١٥.

[٤] – الجرجاني، عبد القاهر، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر أبوفهر، ط:٣، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ص: ٥٠– ٥٦.

[٥] – هو بيان بن سمعان النهدي يقال: إنه ظهر بالعراق زنديقا قال بألوهية علي رضي الله عنه، وبتحولها من بعده إلى ابنه محمد بن الحنفية ثم إلى أبي هاشم ولد بن الحنفية ثم من بعده إلى بيان هذا، وقد إلى نفسه على أنه نبي، ومات قتلا بيد خالد بن عبدالله القسري. انظر العسقلاني، ابن حجر، ١٩٨٦م، لسان الميزان،تحقيق: دائرة المعرفة النظامية، الهند: ط:٣، ٣: ٦٩. والذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، ٢٠٠٣م، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، ط:١، دار الغرب الإسلامي، ٣: ٢١٤.

الرشيد بين أخذ وترك حتى تولى المأمون مقاليد الحكم، فقال بخلق القرآن، ودعا لهذا المذهب بعنف[١]. وتفاقمت الفتنة في هذه المسألة حين أمر المأمون بامتحان العلماء والقضاة في هذه القضية، وحكم بالسجن أو القتل على كل من لايوافقه فيها [٢].

فمنذ ذلك الحين احتدم الجدل حول القضية، وشمر العلماء من أهل السنة وغيرهم عن سواعد الجد للدفاع عن القرآن، ولإثباته بأنه كلام رباني معجز غير مخلوق. فبحث العلماء عن وجوه إعجازه ، وظهرت حول تلك القضية نظريات مختلفة منها نظرية (الصرفة) مؤداها أن الله منع العرب عن معارضة القرآن، وإلا كان في إمكان بعضهم أن يأتوا بمثله.

اعتنق هذا القول من المسلمين إبراهيم بن سيار النظام أحد رؤساء المعتزلة لأول مرة، وخالفه فيه عدد كبير من العلماء. فذهب الجمهور إلى أن القرآن كلام رباني، يتميز بأنه وصف من أوصاف الله العلي العظيم، قديم لا أول له، أبدي لا آخر له، معجز بأسلوبه الرائع وتعبيره الباهر، فيه من أسرار بلاغية رفعت به إلى منزلة الإعجاز، فلم يتمكن العرب أن يعارضوه على الرغم من تكرار تحديه لهم، وتوافر دواعيهم للمعارضة، وعبر بعض أهل العلم من تلك الأسرار البلاغية باسم النظم.

المبحث الثاني: نمو نظرية النظم:

لم تنشأ نظرية النظم في تربة البلاغة العربية صدفة كاملة بمبادئها، بل مرت على أدوار حتى قامت أخيرا على قدم وساق، وسوف ندرس في هذا المبحث تلك الأدوار واحدا تلو آخر باختصار وبشكل مقارن؛ وسيتم كل ذلك ضمن مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: ملامح نظرية النظم و بوادرها:

ظهور الملامح يمثل بذرة النظرية العلمية وبيضتها الأولى، فبوادر نظرية النظم تبدأ بدراسات لغوية مبكرة ترجع إلى زمن يمكن تحديد مبدئه بمضي النصف الأول من القرن الثاني الهجري حيث نشاهد تلك البوادر بالضبط في جهود سيبويه التي بذلها في الدراسات اللغوية الأولى.

بوادر نظرية النظم في كتاب سيبويه: سيبويه هو أبو بِشْر عمرو بن عثمانَ إمام النحاة ، وأول من بسط علم النحو. وضع الإمام كتابا ناقش فيه قضايا لغوية جمة في وقت مبكر، وتعرض من ضمنها إلى بعض قضايا بلاغية أيضا؛ فمن (يرجع إلى كتاب سيبويه الذي يقال إنه جلب مادته من إملاءات الخليل يجده يعرض لبعض الخصائص الأسلوبية التي عُني بها فيما بعد علم المعاني، من مثل التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والحذف، وأيضا فإنه يعرض المعاني المختلفة لبعض الأدوات، ومن حين إلى حين نلتقي بإشارات إلى بعض مسائل بيانية)[٣]. لقد تحدث الشيخ في مواضع متفرقة من كتابه عن بعض قضايا لغوية مهمة تتعلق مباشرة بنظرية اشتهرت فيما بعد بنظرية النظم عند الجرجاني، نذكر بعضا منها فيا يلي:

---

١ – محي الدين الدرويش، ١٤١٥هـ، إعراب القرآن وبيانه، ط:٤، حمص، سورية: دار الإرشاد للشئون الجامعية، ٩: ٦٣.

٢ – ابن كثير، إسماعيل بن عمر، ١٩٩٧م، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله عبد المحسن ، ط:١، الجيزة: هجر للطباعة والنشر، ١٤: ٢٠٧.

٣ – ضيف شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، ص:٢٩.

أولا– الإسناد من أهم عناصر التأليف في الكلام: تحدث سيبويه في باب من أبواب كتابه بعنوان (هذا باب المسند والمسند إليه) عن العناصر الرئيسية التي تلعب دورا أساسيا في تأليف الكلام، صرح فيه بأن الكلام إنما يتكون من أمرين عبر عنهما بالمسند والمسند إليه، وأن المتكلم لا يجد منهما بدا في كلامه [١]. رغم أن الإمام لم يذكر العلاقة بين ما عبر عنه بالمسند والمسند إليه باسم الإسناد أصلا اعتمادا على أن المسند والمسند إليه لا يظهر كل منهما للوجود إلا بالإسناد، والإسناد كما لا يخفى هو ضم لفظ إلى غيره بحيث يفيد الحكم بمفهوم أحدهما على الآخر سلبا وإيجابا، فهو اسم لرباط يربط به المتحدث عناصر كلامه، ويخرجه في ثوب جديد يحمل في طياته اللون الذاتي الذي يتميز به المتكلم من غيره في الكلام، وهو من أهم عناصر النظم في الكلام عند الجرجاني.

ثانيا– وضع كل لفظ في موضع مناسب لوظيفته النحوية في الكلام: صرح سيبويه في باب مستقل من كتابه بأن الكلام منه مستقيم ومنه محال، والمستقيم عنده على ثلاثة أقسام: مستقيم حسن، مستقيم قبيح، مستقيم كذب، والمحال إما محال أو محال كذب. يبدو من تمثيله لكل قسم منها بأن الاستقامة في الكلام هي أن يكون الكلام على وجه من التأليف يفهم منه معناه بحيث يوضع فيه كل لفظ في مكان يليق بوظيفته النحوية واللغوية بحكم اللغة، فالكلام المستقيم – سواء كان حسنا، أو قبيحا أو كذبا – هو ما كان على وجه يفهم منه معناه وأن لا يكون بين عناصر تأليفه تناقض، ولا يكون في تأليف عناصره تعقيد. والمحال عند الإمام هو ما خرج عن الوجه الذي يفهم منه معنى الكلام، وإنما سماه بالمحال لـ(أنه أحيل عن وجهه المستقيم الذي به يفهم المعنى إذا تكلم به)[٢] .

بين سيبويه أن المستقيم القبيح هو (أن تضع اللفظ في غير موضعه)[٣] فالأمر الذي يخرج الكلام عن حسنه هو أن تضع اللفظ فيه في موضع لا يليق بوظيفته النحوية أصلا، ومثل لذلك بقوله: (قد زيدا رأيت، وكي زيد يأتيك)[٤]، وهو مثال يدل بوضوح على ترسيخ دور التأليف بين عناصر الكلام على أساس من الوظائف النحوية في صحة معنى الكلام في ذهن سيبويه، إذ اعتبر فساد هذا الكلام وقبحه، في فساد التآلف بين ألفاظه على مستوى البنية النحوية، والذي يتمثل في عدم مراعاة التوافق بين المعاني النحوية في معنى الكلم. يفهم من خلال ذلك عن طريق المفهوم المخالفة بأن الكلام الذي عبر عنه الشيخ بالمستقيم الحسن هو ما وضع فيه كل لفظ في موضع لائق بوظيفته النحوية، وهو عين ما ذهب إليه الجرجاني في تعريفه لنظرية النظم.

ثالثا– دلالة التقديم والتأخير في اللغة: وبالإضافة إلى ما سبق صرح الإمام في كتابه بأمر مهم آخر، وهو قيمة دلالية للتقديم والتأخير فيما له رتبة حرة في اللغة عند العرب في الكلام، فالتقديم والتأخير بين عناصر تأليف الكلام عنده لا

---

[١] – سيبويه، عمرو بن عثمان، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، الكتاب، تحقق: عبد السلام محمد هارون، ط:٣، القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي،١: ٢٦.

[٢] – السيرافي، أبو سعيد الحسن، ٢٠٠٨م، شرح كتاب سيبويه، تحقق: أحمد حسن مهدلي، علي سيد علي، ط:١، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ١: ١٦٨.

[٣] – سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقق: عبد السلام محمد هارون، ١: ٢٦.

[٤] – المرجع السابق نفسه.

يتم عشوائيا حسب ما قد يتفق للمتكلم، وإنما يكون عن قصد وإرادة، ويتم حسب غرض بلاغي يتوخاه المتكلم، ولا يمكنه الحصول عليه مع مراعاة أصل الإيجاز إلا بهذا النوع من التصرف، وهو مما تسمح به اللغة وأوضاع كلماتها، فالعرب(كأنّهم إنَّما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يُهِمّانِهم ويَعْنِيانهم)[١].

فاستنادا إلى ما سبق من الحقائق الثابتة يمكننا القول بأن أول ما ظهر من بوادر نظرية النظم وملامحها هي هذه الإرهاصات التي نراها قد جاءت شاخصة ضمن آراء سيبويه النحوية في كتابه، وهذا هو ما يسمح لنا أن نحكم بأن سيبويه هو أول من رسخت قدمه في تربة نظرية النظم وإن لم يتحدث عنها صراحة باسم النظم أو نظرية النظم، وتعتبر هذه الإشارات اللغوية بوادر مصطلح النظم الذي صرح به الجاحظ بعد رحلة سيبويه بنصف قرن تقريبا، ووضع على أساس منه مذهبه في وجوه الإعجاز القرآني.

المطلب الثاني: نشأة نظرية النظم وظهورها:

أولا– بدء نشأتها: من تتبع جذور نظرية النظم في تاريخ الثقافة العربية وجد أن النظم كمصطلح علمي ظهر لأول مرة في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وأنه خرج للوجود على يد عمرو بن بحر الجاحظ حيث اعتمد عليه، وجعله اسما لكتاب ألفه لأول مرة في مجال الإعجاز القرآني باسم نظم القرآن، ثم تابعه العلماء في هذا الابتكار فيما بعد، وسمَّى كثير منهم كتبهم بهذا الاسم.

ثانيا– العامل الحثيث في نشأة نظرية النظم: يبدو أن الجاحظ هو الذي ابتكر لأول مرة هذا الاسم كمصطلح في تاريخ البلاغة العربيه، وأقام عليه مذهبه في قضية وجوه الإعجاز القرآني، كان منه ذلك كرد فعل لما ذهب إليه أستاذه النظام من مذهب الصرفة، يدل على ذلك ما ورد في بعض رسائله أنه رد على النظام قوله بالصرفة في وجوه إعجاز القرآن، وأبطل اعتقاده بأن القرآن حق وليس تأليفه بحجة، أفاد الجاحظ هذا الأمر في رسالته كتبها لأحد مواليه يقول له فيها: (فكتبت لك كتابا أجهدتُ فيه نفسي، وبلغتُ أقصى ما يُمَكِّن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على الطعَّان، فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي ، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل، وليس ببرهان ولا دلالة)[٢].

مسيرة تطور نظرية النظم: نشأت نظرية النظم منذ أوائل القرن الثالث الهجري، وبدأت تتطور شيئا فشيئا إلى أن بلغت النضج بيد الجرجاني، وإليك فيما يلي مسيرة تطورها عبر التاريخ العلمي:

جهود الجاحظ في تأسيس نظرية النظم:

فأول من أثار قضية النظم هو الجاحظ الذي عاش قرابة مائة سنة إلا ثماني، أثار هذا الأديب البارع هذه القضية كرد فعل لما ذهب إليه أستاذه إبراهيم النظام من الصرفة في وجوه إعجاز القرآن الكريم. لكن ليس في الواقع بين أيدي

---

[١] – سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقق: عبد السلام محمد هارون، ١: ٣٤.

[٢] – عرفة، عبى العزيز عبد المعطي،١٩٨٥م، قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية،ط:١، بيروت، لبنان: عالم الكتب، ص: ١٤٥.

الدارسين ما يدل على أن الجاحظ طرح هذا المصطلح كنظرية لها أصول ومبادئ، وحدود، وفروع. والجدير بالذكر أنه ألف كتابا في إعجاز القرآن باسم نظم القرآن، وتشير المصادر إلى أنه كان متداولا في العهود الأولى بين العلماء مدة زمنية طويلة؛ فأول من رفع عنه الستار بعد الجاحظ بقرن هو الباقلاني، لكنه لم ينصفه، وجار عليه، و نظر إليه نظرة سلبية حيث قال:(وقد صنف الجاحظ فى نظم القرآن كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر المعنى)[١]. ومثله نقل منه الزمخشري بعد الجاحظ بقرنين أو ثلاثة في مقدمة تفسيره باسم (الكشاف) فقرة في أهمية علم التفسير،[٢] كما نقل منه ابن خلكان من علماء القرن السابع الهجري، في وفيات الأعيان ما نصه: (وذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن، أن أول من سنّ التعريف في مساجد الأمصار عبد الله بن عباس)[٣].

تدل هذه النصوص صراحة بأن كتاب نظم القرآن للجاحظ كان حيا يتداوله العلماء فيما بينهم، ويستفيدون منه إلى أواخر القرن السابع الهجري، كما تلفت الأنظار في الوقت نفسه إلى حقيقة أخرى كذلك، وهي أن الجاحظ لعله تحدث في هذا الكتاب عن النظم كنظرية بلاغية، فربما عرف النظم فيه، وحدد ميزاته، وبين أصوله، ومبادئه، لكن لم يصلنا منه شيء يدل على ذلك.

ما وصلنا عن الجاحظ في النظم: كل ما هو بين أيدينا من رأي الجاحظ في النظم هو أنه اعتبره من عوامل إعجاز القرآن الكريم حيث قال: (وفي كتابِنا المنزّل الذي يدلُّنا على أنّه صِدْقٌ، نَظْمُه البدِيع الذي لايقدِر على مثله العباد)[٤]، وبين أن الرسول – صلى الله عليه وسلم –كان يتحدى العرب بنظم القرآن[٥]وصرح أيضا بأن النظم من الظواهر التي يعرف مدى قيمته بالتمرين والتدريب والتعلم، وأن التفاضل بين نظم و آخر، والفرق بينهما لا يعرفه إلا من اكتسب المهارة في فنون القول،(فليس يعرف فروق النظم، واختلاف البحث والنثر إلا من عرف القصيد من الرجز، والمخمس من الأسجاع، والمزدوج من المنثور، والخطب من الرسائل، وحتى يعرف العجز العارض الذي يجوز ارتفاعه، من العجز الذي هو صفة في الذات.فإذا عرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام، ثم لا يكتفي بذلك حتى يعرف عجزه، وعجز أمثاله عن مثله، وأن حكم البشر حكم واحد في العجز الطبيعي، وإن تفاوتوا في العجز العارض)[٦]. وبالإضافة إلى ما سبق ذِكره، نقل عنه في قضية اللفظ والمعنى ما يدل ظاهرا كأنه وقف إلى جانب اللفظ ، وأشاد به إلى حد حمل بعض النقاد على الزعم بأنه قد نال من شأن المعنى في الكلام حيث قال:(والمعاني مطروحةٌ في

---

١ – الباقلانى، اعجاز القرآن، ٢٠٠٩ ، تحقيق: السيد أحمد صقر، مصر: دار المعارف، ص: ٧.

٢ – الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، ١٤٠٧هـ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت، لبنان: دار الكتاب العرب، ١: ١.

٣ – ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد، ١٩٠٠م، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، لبنان: دار صادر، ٣: ٧٢.

٤ – الجاحظ، عمرو بن بحر، ١٩٩٦، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، لبنان: دارالجيل،٤: ٩٠.

٥ – ينظر المصدر السابق، ٤: ٨٩.

٦ – الجاحظ، عمرو بن بحر، ١٩٦٤م، رسائل الجاحظ،تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ٤: ٣١.

الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ والبدويُّ والقرَوي والمدنيّ، وإنَّما الشأنُ في إقامةِ الوزن وتخيُّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحَّة الطبع، وجَودَة السَّبك، فإنما الشعر صناعةٌ وضَرْب من النَّسج وجنسٌ من التَّصوير)[١]. وقد اندهش به كثير من الكتاب والنقاد، وتحيروا في فهمه، واختلفوا فيه اختلافا كبيرا، فمنهم من ذهب بعيدا، واتهم الجاحظ بأنه قلل من شأن المعنى، وركز على البنية السطحية المتمثلة في التناسب والتناسق بين عناصر البناء الشكلي للكلام، واعتبر هذا التناسب في البناء الشكلي للكلام معيارا لتصور الجاحظ عن النظم.

الجاحظ يرسم خطوط نظرية النظم: والحق أن الذي أدهش النقاد والعلماء من آراء الجاحظ قوله الذي قاله بخصوص نظم الشعر، وهو قول يكتب عنه بماء الذهب، إذ يلمع فيه تصوره عن نظرية النظم بوضوح، حيث قال(وإنَّما الشأنُ في إقامةِ الوزن وتخيُّرِ اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحَّة الطبع، وجَودَة السَّبك، فإنما الشعر صناعةٌ وضَرْب من النَّسج وجنسٌ من التَّصوير)[٢] ويدل على أيضا على أنه لم ينل بقوله(والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ والبدويُّ والقرَوي والمدنيّ)[٣] عن قيمة المعنى الجزئي أصلا، وإنما قصد بلفظ (المعاني) الموضوعات العامة التي يريد كل متكلم أن يُروِّض فيها خيول فكره، ويناقشها من وجهة نظره الخاص به في ضوء الموهبة التي فطره الله عليها، والمهارة التي اكتسبها بالتجربة.

فكل أديب يود أن يناقش قضية حياتية، علمية كانت أو تاريخية أو اجتماعية، أو.... ، وهي حقا مطروحة في الطريق. فهذا هو المقدار المشترك من المعاني العامة بين الجميع، يشترك فيه المتكلمون جميعا، يعرفه كل واحد على السواء، لا يخفى على أحد كائنا من كان، سواء كان عجميا أو عربيا، بدويا أو حضريا، قرويا أم أعرابيا كما أشار إليه الجاحظ، فكل واحد يروض خيول فكره في هذا القدر المشترك ، فيعالجه الجميع لا من وجهة نظر واحد، بل كل يريد أن يعالجه من وجهة نظر خاص به. وبالإضافة إلى ذلك يأخذ كل واحد من المتكلمين من ألفاظ اللغة– وهي مادة مشتركة هي الأخرى بينهم– فيرتبها على البنية السطحية الخارجية للكلام حسب تصوره الذهني الخاص به عن المعاني العامة، ويعالج بها تلك المعاني العامة، فينسجها نسجا ذاتيا يحمل في طياته سماة صانعه الذاتية، وملامح فكر نسجاهه، وتصور طراحه الشخصي بصورة واضحة جلية.

فالقدر الذي يشترك فيه الجميع عند الشيخ الجاحظ، يشمل المعاني العامة والموضوعات الكبيرة، ولا يشمل المعاني الجزئية التي يحمل في طياتها سمات ذاتية لكل متكلم، ومن المستحيل أن يغيب عن بال الجاحظ أن المتكلم مهما شارك غيره في معالجة المعاني العامة يتميز من غيره بتصوره الذاتي عن ذلك الصرح الشامخ، كما يتميز منه بمهاراته المكتسبة، وبمواهبه الفطرية التي منحها الله كل واحد من مخلوقه بصور مختلفة وبمقادير متباينة.

مقاييس النظم عند الجاحظ: اتضح من قول الجاحظ السابق أنه رسم خطوط أساسية لنظم الشعر من خلال تلك الكلمات المحددة الموجزة، فلخصها في أمور تالية:

---

[١] – المصدر السابق، ٣ : ١٣٢.

[٢] – المصدر السابق نفسه.

[٣] – المصدر السابق نفسه.

١ – سلامة الوزن وإقامته: فسلامة الوزن هي صحته عروضيا، وإقامة الوزن هي التناسب بين أوزان البحور الشعرية والموضوعات التي يعالجها الشاعر بشعره.

٢ – تخير اللفظ، وهو التناسب بين الألفاظ وما يعالجه المتكلم بها من المعاني: فقد دل ذلك على أن الجاحظ ذهب إلى الاعتقاد بوجود التناسب بين الألفاظ والموضوعات التي تعالج بها، فما يناسب النسيب من ألفاظ اللغة قد لا يناسب المدح، وما يناسب المدح من الألفاظ قد لايناسب الهجو، وما يناسب الحماسة قد لا يناسب الرثاء، فمدى إقامة التناسب بين الألفاظ وما يعالج بها من المعاني في الحقيقة من مواليد قوة خيالية عند كل واحد من المتكلمين.

٣ – سهولة المخرج، وهي فصاحة الألفاظ المفردة ؛

٤ – صحة الطبع: هي كون الكلام مطبوعا يأتي عفو الخاطر من غير عناء ومشقة.

٥ – جودة السبك: وهي إحكام التآلف والتآخي بين عناصر الكلام من الألفاظ والمعاني.

ابن قتيبة ونظرية النظم:

ابن قتيبة هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، ولد سنة (٢١٣ هـ) ، ونشأ في بغداد، وتتلمذ على يد عدد كبير من العلماء ، و توفي سنة (٢٧٦هـ) وقد خلف لمن بعده عددا من الكتب منها (تأويل مشكل القرآن). ألف الشيخ هذا الكتاب ليدفع به شبهات كان المعارضون يثيرونها حول القرآن آنذاك، فقال:(قد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون[١]، ولغَوا فيه وهجَروا ... فحرّفوا الكلام عن مواضعه ، وعدلوه عن سبُله ، ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة في اللحن[٢]، وفساد النظم، والاختلاف، وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغَمِرَ، والحدث الغِرَّ،[٣] واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك[٤] في الصدور... فأحببت أن أنضح عن كتاب الله[٥]، وأرمي من ورائه بالحجج النيرة ، والبراهين البينة ، وأكشف للناس ما يلبسون ، فألّفت هذا الكتاب جامعا لتأويل مشكل القرآن) [٦].

دور ابن قتيبة في نظرية النظم: لقد أسهم ابن قتيبة في نظرية النظم ضمن حديثه عن القرآن الكريم ودفاعه عنه في مقابل المعاندين في تأويل مشكل القرآن، فنظر في كتابه هذا في تلك الفترة المبكرة إلى القرآن نظرة متمايزة ، وهي نظرة ربما لم ينظر بها إليه بتلك الصراحة والصرامة من كان قبله من العلماء ولا من عاصره، فقال: (الحمد لله الذي نهج لنا

---

١ – أي عرضه ملحدون بالطعن، وإثارة الشكوك فيه. يقول العرب: اعترض الشيء إذا عرضه، ويقال: اعترض المتاع للبيع، واعترض القائد الجند إذا عرضهم، مثله يقال: اعترض فلان فلانا، إذا وقع فيه فأخذ يشتمه، ويؤذيه. الزبيدي، تاج العروس، ١٨: ٤١٦.

٢– الاستحالة في اللحن الاعوجاج في اللغة. كل شيء استحال عن الاستواء إلى العِوَج يقال له مستحيل. الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، ٥: ١٥٦، باب الحاء واللام. يقال استحال الكلام إذا عُدل به عن وجهه. انظر المعجم الوسيط، باب الحاء.

٣ – الغَمِر: غير المجرب. الغِرُّ: المعجب بنفسه.

٤ – قدحت بالشكوك: أشعلت الشكوك.

٥ – أنضح عن كتاب الله: أدافع عنه.

٦ – ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، ٢٠٠٧م، تأويل مشكل القرآن،، تحقيق: إبراهيم، شمس الدين بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ص:٤.

سبل الرّشاد ، وهدانا بنور الكتاب... قطع منه بمعجز التّأليف أطماعَ الكائدين ، وأبانه بعجيب النّظم عن حِيل المتكلّفين، وجعله متلوّا لا يملّ على طول التّلاوة ، ومسموعا لا تمجّه الآذان، وغضّا لا يُخلق على كثرة الرد، وعجيبا لا تنقضي عجائبه، ومفيدا لا تنقطع فوائده، ...وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه ، وذلك معنى قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "أوتيت جوامع الكلم"[١])[٢].

فقد صرح ابن قتيبة بلفظ واضح صريح بأن القرآن معجز، وبين علة إعجازه بأنه في نظمه وتأليفه. فقد أيد برأيه هذا شيخه الجاحظ الذي استدل بنظم القرآن على كونه من أدلة نبوة الرسول – صلى الله عليه وسلم–، فوافقه ابن قتيبة على ذلك إلا أنه أضاف بأنه معجز، فأطلق اسم المعجزة على ما سماه الجاحظ بدليل النبوة. فدل ذلك على أن ابن قتيبة من أوائل من أطلق اسم المعجزة على ما يثبت به للناس نبوة الأنبياء، وأطلقه على القرآن الكريم لأول مرة في تاريخ الأمة ، وقد كان يسمى قبل بأسماء أخرى منها دليل النبوة وآيتها، وسلطانها، وبرهانها.

سمات نظم القرآن عند ابن قتيبة: لم يكتف ابن قتيبة على إعادة ما قد ذكره شيخه الجاحظ قبله، فيقول بأن نظم القرآن العجيب هو سبب هذا الإعجاز فحسب، بل وبالإضافة إلى ذلك حاول أن يتأمل نظمه، ويكشف الأسرار التي سببت إعجازه، فوصفه وصفا إجماليا، فحدد مميزاته، ووجد أن بعضها يرتبط باللفظ وبعضها يتعلق بالمدلول والمعنى، ولخص ما يتعلق باللفظ في نقاط خمس تالية:

حلاوة اللفظ؛

سهولة العبارة؛ فلا يمله القارئ على طول تلاوته، ولا تكرهه الأذن بكثرة سماعه؛

غضاضة اللفظ، أي فصاحته؛

قوة الفصاحة، فقدرها بأنها بلغت أقصى ما يمكن أن يبلغه اللفظ؛

دوام الفصاحة، فصاحة القرآن هو وصف باق لا يضره طول الدهر؛

الإيجاز، وهو من أهم سماة التعبير القرآني حيث جمع المعاني الكثيرة في لفظ قليل مختصر .

ولخص ابن قتيبة ما يتعلق بالمعاني من سمات نظم القرآن في النقطتين التاليتين:

العجائب اللامتناهية من المعاني الثانوية التي تستفاد من مواقع الألفاظ والصور البيانية ؛

تضمُّنه لما لا تنقطع فوائده من المعاني والأغراض ؛

فإذا أمعنت النظر وجدت أن ابن قتيبة شارك في تطور نظرية النظم بجهوده مشاركة منقطع النظير، فحدد أهم عناصر ما يسمى بالنظم من الكيان اللغوي، وهي اللفظ والمعنى والتأليف.

---

[١] – مسلم، صحيح مسلم، برقم ٧– (٥٢٣) بلفظ (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى الْعَدُوِّ وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدَيَّ).

[٢] – ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، ٢٠٠٧، تأويل مشكل القرآن،، تحقيق: إبراهيم، شمس الدين، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ص: ١١.

الواسطي ونظرية النظم: الواسطي هو محمد بن يزيد تلميذ الجاحظ، أخذ يعمر هذا العالم بجهوده أواخر القرن الثالث الهجري، ألف الواسطي كتابا سماه بـ (إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه)[١]. ورد في كشف الظنون أن عبد القاهر الجرجاني وضع لكتابه شرحين، أحدهما طويل سماه بالمعتضد، والآخر موجز قصير[٢]. وقد ضاع الكتاب مع شرحيه مثل بقية ما ضاع من التراث العلمي الثمين، فليس بين أيدينا ما يعتمد عليه في الكشف عن رأي الواسطي في النظم من خلال محتوى الكتاب. يدل ما نص عليه الحاج خليفة على أن كتاب إعجاز القرآن للواسطي كان معروفا يتداوله طلاب العلم في حلقاتهم الدراسية إلى عهد عبد القاهر الجرجاني، ولأهميته، ومكانته السامية، وضع عبد القاهر الجرجاني عليه شرحين اثنين، طويل وقصير. يبدو أن الواسطي نال نظرية النظم من الجاحظ بحكم التلمذة، كما يدل ظاهر اسم الكتاب على أنه يناقش فيه الأسرار التي يرجع إليها إعجاز القرآن، وأن هذه الأسرار هي كامنة في نظمه وتألفيه.

جهود الإمام الرماني في نظرية النظم:

الإمام الرماني هو عيسى بن علي من كبار أئمة المذهب الاعتزالي ، ولد سنة ٢٩٦من الهجرة في بغداد، ونشأ بها نشأة فقيرة، كان محبا للعلم، فطلبه، فناله وأجاد فيه، وأتقن، وتوفي رحمه الله سنة ٣٨٦ من الهجرة.

مظاهر نظرية النظم عند الرماني: تحدث الرماني عن قضية النظم ضمن حديثه عن إعجاز القرآن في رسالته باسم النكت في إعجاز القرآن. ذكر في هذه الرسالة تلك القضية باسم التأليف مرة، كما ذكرها باسم النظم أخرى. ورد حديثه عنها أثناء كلامه عن بلاغة القرآن كوجه من وجوه إعجاز كتاب الله في عدة مواضع، منها حديثه عن (التلاؤم)، والتلاؤم عنده قسم من أقسام البحث البلاغي العشرة، ورد في كلامه عنها هنالك أن(التلاؤم نقيض التنافر، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف)[٣]. يقصد الرماني بالحروف الألفاظ، كما يقصد بتعديلها التناسب والتناسق بينها.

معايير التلاؤم عند الرماني: يتحقق التناسق بين ألفاظ الكلام إذا أخذ بعضها برقاب بعض، وتلاحم، فيسهل على المتلفظ أن يخرج عن النطق بأحدها إلى النطق بآخر وهو لايشعر بالثقل على اللسان عند التلفظ. بين الرماني هذا المعنى أثناء حديثه عن (البيان) من أقسام البلاغة، صرح هنالك بأن (حسن البيان في الكلام على مراتب، فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان، وتتقبله النفس تقبل البرد، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة)[٤].

---

[١] – النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق ،١٣٩٨ هـ ١٩٧٨، الفهرست، بيروت، لبنان: دار المعرفة، ص: ٢٤٥ .

[٢] – الحاج خليلفة، مصطفى بن عبد الله،١٩٤١م، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، باب إعجاز القرآن، بغداد، العراق: مكتبة المثنى، ١: ٨١.

[٣] – الرماني، علي بن عيسى، ١٩٧٦م، النكت في إعجاز القرآن، تحقق: محمد خلف الله، د. محمدزغلول سلا، ط:٣، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن،مصر: دار المعارف، ص: ٩٤.

[٤] – المرجع السابق، ص: ١٠٧.

أقسام التأليف عند الرماني: قسم الرماني التأليف إلى ثلاثة أقسام: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا[١]. فالمتنافر هو ما كان ألفاظه غير متناسبة فيما بينها وغير متآخية، فيشعر المتكلم بالثقل على اللسان أثناء الخروج عن النطق بأحد ألفاظه إلى النطق بالآخر، وهو تعبير فيه قبح وشناعة يجب أن يتنزه منه الكلام، ويربأ به عنه.وأما التأليف المتلائم في الطبقة الوسطى عند الرماني فهو ما يجري على ألسنة فصحاء العرب من الشعراء والخطبا. والتأليف المتلائم في الطبقة العليا عنده هو القرآن كله من أوله إلى آخره[٢].

والمقياس في معرفة هذه المستويات، وتمييز حدودها الفاصلة عند الرماني هو الذوق والسليقة البلاغية، أفاد هذا المعنى أثناء حكمه على تأليف القرآن بأنه في الطبقة العلياء، وصرح بأن(ذلك بيّنٌ لمن تأمَّله، والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى، وبعض الناس أشد أحساسا بذلك وفطنة له من بعض... واختلاف الناس في ذلك من جهة الطباع كاختلافهم في الصور والآخلاق)[٣].

أسباب تلاؤم في التأليف: فالسبب للتلاؤم في التأليف عند الرماني هو التناسب بين الألفاظ، وتعديلها والتناسق بينها، و ثمرة التفاوت بين كلام وآخر عنده ترجع إلى مدى قوة التلاؤم والتنساق بين ألفاظه، وأشار الرماني إلى أن التناسق بين ألفاظ التأليف ينبغي أن (يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة)[٤]. فكلما كانت ألفاظ التأليف أكثر تعادلا، وأحكم تناسقا كان التأليف أشد تلاؤما وأقوى وأحكم تناسبا.

مقدرة التأليف الدلالية: وبالإضافة إلى ذلك أشار الرماني إلى مقدرة التأليف الدلالية كذلك، فأضاف أن (البيان في الكلام لا يخلو من أن يكون باسم أو صفة أو تأليف من غير اسم للمعنى أو صفة... ودلالة الأسماء والصفات متناهية، فأما دلالة التأليف فليس لها نهاية، و لهذا صار التحدي فيها بالمعارضة لتظهر المعجزة)[٥]. الفقرة الأخير من كلام الرماني تشير إلى عنصر مهم من عناصر النظم في الكلام، وهو عنصر الدلالة والمعنى المستنبط من التأليف بين الألفاظ. صرح الرماني في هذه الفقرة بأن التحدي الذي وجهه القرآن، وطلب من الناس أن يأتوا بمثله، أو بما يماثل عشرا من سوره أو بما يماثل سورة من أقصر سوره ، فعجز عنه الناس، كان ذلك التحدي في دلالة التأليف ليس غير، وصرح فيه بأن القرآن معجز بدلالة تأليفه.

٦– للتأليف عند الرماني قدرة دلالية، تختلف دلالة تأليف الكلام من دلالة ألفاظه، فدلالة تأليفه غير متناهية، ودلالة الألفاظ متناهية.

٧ – يرجع تحدي القرآن للعرب عند الرماني إلى دلالة التأليف دون الألفاظ.

---

[١] – المرجع السابق، ص ص: ٩٤– ٩٥.

[٢] – المرجع السابق نفسه.

[٣] – الرماني، علي بن عيسى، ١٩٧٦م، النكت في إعجاز القرآن، ص: ٩٥.

[٤] – المرجع السابق، ص: ١٠٧.

[٥] – المرجع السابق نفسه.

وعلى الرغم من كل هذا التطور الذي حدث في قضية نظرية النظم بيد الرماني حيث أشار صراحة إلى دور المعنى والدلالة في إحكام النظم بقيت هذه النظرية في حاجة ماسة إلى عمل جاد في طريقها؛ لأنها لم يتحدد حدودها بعد، كما لم يرتسم بعد معالمها واضحة جلية.

النظم عند الإمام الخطابي:

الخطابي هو حمد أو أحمد بن محمد البستي، ولد عام ٣١٩ من الهجرة في مدينة (بُسْت) الأثرية التابعة لمحافظة هلمند من بلاد الأفغان حاليا، فيها ولد الإمام طفلا، و نشأ يافعا وعاش عالما وداعيا، وإليها نسب، وفيها توفي عام٣٨٨ من الهجرة ودفن بعد حياة حافلة بالعلم والمعرفة، وخلف تراثا علميا ضخما منه كتابه المشهور باسم (البيان في إعجاز القرآن). تحدث الخطابي عن نظرية النظم بالإجمال في هذا الكتاب، تحدث عنها وهو يبين وجوه الإعجاز القرآني، فذكر أن من العلماء من قال بالصرفة، ومنهم من قال بتضمنه للإخبار عن الأحداث الغيبية، ومنهم من اعتبر وجه الإعجاز فيه بلاغته، وقد اختار منها الإمام الوجه البلاغي، ورجحه، وذكر أن من قال بهذا الوجه قبله يعوزه التفصيل في وصفه وبيان الأسرار التي تكمن في بلاغة القرآن، والتي تبلغ بها إلى حد الإعجاز، فحمل الأمر في إدراكها على الذوق والسليقة ومجرد الإحساس النفسي، والشعور الداخلي، وهذا مما لا يقتنع به المجادل، فلايسمن ولايغني من جوع في مثل هذه القضايا.

حاول الخطابي أن يكشف الأسرار الكامنة في البلاغة القرآنية، وقد تعرض من خلال ذلك إلى بيان حدود الكلام، وصرح بأن الكلام يقوم بأشياء ثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم[١]. عَد الخطابي الأسرار البلاغية الكامنة في تعبير القرآن مجموعة أمور، وهي: فصاحة ألفاظه، وقوة تعبيره على مستوى النظم، وشرف معانيه، فإنك (إذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولاترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها)[٢]. وأضاف الخطابي أن القرآن (إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني)[٣].

فسر إعجاز القرآن عند الخطابي يرجع إلى فصاحة لفظه، وشرف معانيه، وقوة نظمه. والنظم عنده أحد الأمور الثلاثة التي بلغ التعبير القرآني بمجموعها إلى مستوى الإعجاز، إلا أنه لم يوضح حدوده ، ولم يذكر عناصره، ولم يبين سر قوته في تعبير القرآن.

---

١ – الخطابي، حمد بن محمد، ١٩٧٦م،بيان إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، ضمي ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن،ط:٣، مصر: دار المعارف، ص: ٢٧.

٢ – المرجع السابق، ص: ٢٧.

٣ – المرجع السابق نفسه.

النظم عند الإمام الباقلاني:

الباقلاني هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد ، انتهت إليه رياسة مذهب الأشاعرة في عصره. ولد الباقلاني في البصرة سنة ٣٣٨ من الهجرة، وسكن بغداد، فتوفي فيها سنة ٤٠٣ من الهجرة [١] بعد أن خلف تراثا علميا ضخما منه كتابه المشهور باسم (إعجاز القرآن). تعرض الباقلاني من خلال موضوعات كتابه إلى نظرية النظم أيضا، واعتبر نظم القرآن الكريم من وجوه إعجاز هذا الكتاب السماوي، وإليك فيما يلي خلاصة مذهبه في تلك النظرية:

أساس حديث الباقلاني عن نظرية النظم: تحدث الباقلاني عن النظم معتمدا عليه كوجه من وجوه الإعجاز القرآني، فقال: (والوجه الثالث أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه)[٢]، واعتبر الباقلاني مستوى نظم القرآن وتأليفه البديع فارقا أساسيا بينه بين بقية الكتب السماوية، فقال: (وفارَقَ حكمُه حكمَ غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأنها لاتدل على أنفسها إلا بأمر زائد عليها، ووصف منضاف إليها؛ لأن نظمها ليس بمعجز، وإن كان ما تضمنه من الأخبار عن الغيوب معجزا، وليس كذلك القرآن؛ لأنه يشاركها في هذه الدلالة، ويزيد عليها نظمه في أن نظمه معجز)[٣]. حاول الباقلاني أن يلعب دوره في تأسيس مفهوم نظرية النظم إلا أنه انصرف عنه، فلم يعرف النظم، وعلى الرغم من ذلك تمكن أن يدفع ركب هذه النظرية إلى الأمام شيئا ما ببيان خصائص نظم القرآن الكريم الظاهرة، وإليك فيما يلي بعض خصائص نظم القرآن التي أثبتها الباقلاني لنفسه وتباهى بها في تاريخ الدرس البلاغي.

خصائص نظم القرآن عند الباقلاني: ذكر الباقلاني أن من كان قبله من العلماء اعتبروا نظم القرآن البديع، وتأليفه العجيب من وجوه إعجازه، لكنهم لم يزيدوا فيما ذهبوا إليه من قولهم في النظم على هذا القدر، وبقي الأمر بحاجة إلى التفصيل والتوضيح، وأنه قد عزم على أن يفصل القول في نظم القرآن، ويوضح ما ذكره العلماء قبله مجملا، فبين بعض ما يتميز به النظم القرآني، وعبر عن تلك المميزات باسم الوجوه[٤]، وهي:

تجديد النظام: فأول ما ذكره الباقلاني من تلك المعاني هو أن القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلام العرب (ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالا، فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، وترتيبٍ لطيف، وإن لم

---

١ – الزركلي، الأعلام، ٦: ١٧٦. بالتصرف.

٢ – الباقلاني، ١٩٩٧م، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط:٥، القاهرة، مصر: دار المعارف، ص: ٦٩.

٣ – المرجع السابق، ص ص: ١٤-١٥.

٤ – المرجع السابق، ص: ٥١.

يكن معتدلا في وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل فيه ولا يتصنع له)[١]. فالقرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق، فإذا تأمله المتأمل تبين – بخروجه عن أصناف كلام العرب وأساليب خطابهم – أنه خارج عن العادة وأنه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميزٌ حاصل في جميعه[٢].

الإحاطة بفصحاة اللفظ وقوة المعاني: ومما يتميز به نظم القرآن عند الباقلاني هو إحاطته (على الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثير والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر ، فربما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها من الاختلال، ويعترضها من الاختلاف ويشملها من التعمُّل والتكلُّف والتجوز والتعسف، وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به، ... أن كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال) [٣].

قوة النظم والتأليف بين المعاني: ومثله يتميز نظم القرآن عند الباقلاني باحتفاظه على عجيب نظمه وبديع تأليفه في جميع (ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها)[٤].

قوة الإحكام بين وجوه الخطاب المتباينة: ومما يتميز به نظم القرآن إحكام الوجوه التي يتصرف إليه الخطاب فيه، فـ(يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة ويخرج معه الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف)[٥].

التفوق البلاغي: ومن مميزات نظم القرآن وقوعه (موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن كما يخرج عن عادة كلام الإنس، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا)[٦].

قوة وجوه الخطاب: ومما يتميز به نظم القرآن تجاوزه حدود كلام العرب المعتاد بينهم في الفصاحة والإبداع والبلاغة على مستوى ما ينقسم إليه الخطاب من أقسام الوجوه والفنون نحو الإطناب والاختصار، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح، والتجوز والتحقيق ونحو ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها كلامهم.

---

١ – المرجع السابق، ص: ٥٢.

٢ – المرجع السابق، ص: ٥٢.

٣ – المرجع السابق، ص: ٣٦.

٤ – الباقلاني،١٩٩٧م، إعجاز القرآن، ص: ٥٤.

٥ – المرجع السابق، ص: ٥٧ .

٦ – المرجع السابق نفسه.

التلاؤم التام بين اللفظ والمعنى: ومثله يتميز نظم القرآن بالتوافق التام بين ألفاظه المتخيرة وما تتضمنه تلك الألفاظ من المعاني المبتكرة الجديدة،[١].

فصاحة اللفظ: والثامن ما يتميز به نظم القرآن عند الباقلاني هو فصاحة ألفاظه، فإنك لو ترى الكلمة من القرآن يُتمثل بها في تضاعيف كلام كثير تجدها وهي غرة جميعه، وواسطة عقده، والمنادية على نفسها ببرونقها وجمالها، يتبين فضل الكلام ورجحان فصاحته من أن كلمة منه إذا وجدت في تضاعيف كلام، أو وضعت بين الشعر أخذتها الأسماع، وتشوفت إليها النفوس ويُرى وجه رونقها باديا كالياقوتة في واسطة العقد[٢].

التجديد في المطالع: التاسع ما يتميز به نظم القرآن عند الشيخ هو ابتداء بعض سوره بالحروف المقطعة، وهي ثمان وعشرون سورة، وقد أشار الشيخ عند تحليل هذه القضية إلى حقيقة كانت عند نزول القرآن من الغيوب لم تكتشف بعد، فقال: والحروف التي ابتدأت بها تلك السور تُمثل نصف جميع حروف التهجي العربي عددا وصفة، واستنتج بأن ذلك لم يتم حسبما اتفق، بل كانت وراءه حكمة إلهية تتمثل فيما يلي:

١ – الدلالة بالمذكور على غيره من حروف التهجي العربي؛

٢ – معرفة العرب بأن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم؛

٣– التنبيه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر على حد التنصيف الذي ذكره الباقلاني،

٤– الدلالة على أن وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليه بعد العهد الطويل لا يجوز أن يقع إلا من الله عز و جل لأن ذلك يجري مجرى علم الغيوب[٣].

سهولة فهمه واستحالة تناوله: الأمر العاشر الذي يتميز به نظم القرآن عند الباقلاني سهولته، وخلوه عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر وعن الصنعة المتكلفة، وهذا الأمر هو الذي جعله قريبا إلى الفهم، فيجد كل من أراد الخوض فيه نصيبه منه وحظه، فيبادر معناه لفظه إلى القلوب، وأضاف أنه مع سهولة الفهم بعيد من أن يتناوله أحد، فقال: (وهو مع ذلك ممتنع المطلب، عسير المتناول، غير مطمع مع قربه في نفسه، ولا موهم مع دنوه في موقعه أن يقدر عليه أو يظفر به)[٤].

فالباقلاني مثل بقية من سبقه من العلماء اعتبر النظم من وجوه إعجاز القرآن، بل وفاق من سبقه بأنه نادى به صراحة، وبالإضافة إلى ذلك تحمل مؤونة الكشف عن الأسرار التي تقع وراء قوة نظمه، وبين أن قوة نظم القرآن تتمثل في عشرة أوجه إلا أنه أيضا ترك هذا المصطلح غامضا، خفيا لم يوضح حدوده، ولم يبين عناصره، فبقي نيئا لازال يحتاج الرعاية والاهتمام من ذويه.

---

١ – ينظر المرجع السابق، ص: ٦٣.

٢ – المرجع السابق، ص ص: ٦٣– ٦٤، بالتصرف.

٣ – الباقلاني،١٩٩٧م، إعاز القرآن، ص ص: ٦٦ – ٦٨، بالتصرف.

٤ – المرجع السابق، ص: ٤٦.

المطلب الثالث: نضج نظرية النظم على يد الجرجاني:

تصدى لنظرية النظم في القرن الخامس الهجري عالم آخر باسم عبد القاهر الجرجاني ، فأكمل ما فات غيره ممن سبقه في تلك النظرية، وبلغ بها إلى النضج والكمال، فاشتهرت باسمه، وتعلقت به تعلق الْمِلك بمالكه. عاش عبدالقاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري، لم يشر كتب التراجم إلى تاريخ ميلاده، وصرح بعض المراجع بأنه توفي في عام ٤٧١ من الهجرة، من أهم ما كتبه الشيخ أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز.

نواة نظرية النظم عند الجرجاني: خص الجرجاني دلائل الإعجاز لتوضيح نظرية النظم من خلال الكشف عن الأسرار التي فاق بها الأسلوب القرآني غيره من الأساليب الكلامية، فأول ما بدأ به كتابه كلام وجيز يتحدث فيه عن نواة تشكَّل منها نظرية النظم بداية، وبين (أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجَعْلِ بعضها بسبب من بعض)[١].

أساس البحث عن نظرية النظم عند الجرجاني: أضاف الشيخ أن التعليق بين الكلم لايعدو أقساما ثلاثة، وهي: تعليق اسم باسم، وتعليق اسم بفعل، وتعليق حرف باسم وفعل[٢]. فأساس نظرية النظم في الكلام عنده هو ترتيب ألفاظ الكلام وفق العلاقة النحوية، إلا أن هذا التعليق بين ألفاظ الكلام ليس كل ما تتكون منه نظرية النظم، بل هنالك عنصر آخر به يظهر الاختلاف بين كلام وآخر على مستوى النظم قوة وضعفا، وبالتالي يحصل به التفاضل بين كلامين ترتب في كل منها العناصر اللغوية وفق المعاني والعلاقات النحوية.

من هنا ألزم الشيخ على نفسه الكشف عن الأسرار التي بها يتفاوت نُظُم الكلام، ولقد بين ذلك فقال:(فما هذا الذي تجدَّد بالقرآن من عظيم المزية، وباهر الفضل، والعجيب من الوصف، حتى أعجز الخلق قاطبة ، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القُوَى والقُدَرِ وقيَّد الخواطر والفكر، ... وحتى أسال الوادي عليهم عجزاً، وأخذ منافذ القول عليهم أخذاً؟ أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله؟ ونرده عن ضلاله؟ وأن نطب لدائه؟ ونزيل الفساد عن رائه؟[٣] فإن كان ذلك يلزمنا، فينبغي لكل ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه، ويستقصي التأمل لما أودعناه)[٤].

ما به يحصل التفاوت بين نُظُم الكلام عند الشيخ: صرح الجرجاني بأن ما يرتقي به مستوى الكلام، هو الأسرار البلاغية، و(أن ها هنا دقائق وأسراراً، طريق العلم بها الروية والفكر، ولطائف مستقاها العقل، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هُدوا إليها، ودُلوا عليها، وكُشف لهم عنها، ورُفعت الحُجبُ بينهم وبينها، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام، ووجب أن يفضل بعضه بعضاً، وأن يبعد الشأو في ذلك، وتمتد الغاية، ويعلو مرتقى، ويعز المطلب، حتى ينتهي

---

[١] – الجرجاني، عبد القاهر، ١٩٩٥م، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد التنجي، ط:١، بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي، ص: ١٣ .

[٢] – المرجع السابق، ص ص:١٣ – ١٧.

[٣] – يعني رأيه.

[٤] – الجرجاني، عبد القاهر، ١٩٩٥م، دلائل الإعجاز، ص ص: ١٧ – ١٨.

الأمر إلى الإعجاز، وإلى أن يخرج من طوق البشر)[١]. فهذه الأسرار البلاغية هي التي تُوثق عرى تعلق الكلم فيما بينها، وتُحكِم بعضها ببعض وفق ماتقتضيه معاني النحو في الكلام، وحدد الشيخ طريق معرفة تلك الأسرار، وأشار في ذلك إلى علم البلاغة والبيان، وأثنى عليه، وبين: (أنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً، وأبسق فرعاً،[٢] وأحلى جَنىً، وأعذب وِرْداً، وأكرم نتاجاً، وأنور سراجاً، من علم البيان الذي لولاه لم تر لساناً يحوك الوَشْيَ، ويصوغ الحَلْيَ، ويلفظ الدُرَّ، وينفث السحر، ويَقْري الشَهْد ويُريك بدائع من الزهر، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر)[٣].

حقيقة فصاحة الألفاظ خارج نطاق التأليف عند الشيخ ومعيار حسنها: يتبين من النظرة العابرة الأولى في النصوص السابقه أن الشيخ يزري ببناء الكلمة الشكلي ومستوى استعمالها في عرف أهل اللغة، وهما من أهم شروط فصاحة الألفاظ عند المتأخرين. وإذا ما أمعنا النظرة في محتوى تلك النصوص تبين أن هذا النوع من الاستنباط في الواقع يخالف وجهة نظر الشيخ؛ فهو يتحدث أصلا في تلك النصوص عن اللفظة العربية التي يتفاهم بها أهل اللغة في كلامهم، وإذا ما كانت كذلك ينبغي أن تكون سليمة في بنائها الشكلي، وفي الوقت نفسه ينبغي أن تكون مستعملة في الكلام، فلاتكون في ثقيلة ومخالفة لأصول العرب في بناء الألفاظ ولا غريبة وحشية. وينفي الشيخ (أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخص، وامتزاجها أحسن، ومما يكُدُّ اللسان أبعد)[٤]. فهو يعترف في هذا النص صراحة بأن الكلمات تتفاضل فيما بينها وهي خارجة عن نطاق النظم والتأليف، إلا أن معيار هذا التفاضل لايتجاوز حدود أمرين اثنين من وجهة نظره، أولهما التلاؤم والتناسق فيما بين حروف بنائها، والثاني مستوى استعمالها كثرة وقلة.

حقيقة النظم عند الجرجاني: عرف الشيخ النظم، وركز في تعريفه على مراعاة معاني النحو وأحكامه، فقال: (ليس «النّظم» شيئا إلّا توخّي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروعه فيما بين معاني الكلم)[٥]. وأضاف في موضع آخر بأن ألفاظ الكلام ينبغي أن تكون متآلفة فيما بنيها، فيأخذ بعضها برقاب بعض بحيث لو تغير أي واحد منها من موضعه إلى موضع آخر اختل النظام على مستوى المعنى والدلالة ، و(أنّ ممّا هو أصل في أن يدقّ النظر، ويغمض المسلك، في توخّي المعاني التي عرفت: أن تتّحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتدّ ارتباط ثان منها بأوّل، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه هاهنا في حال ما يضع بيساره هناك. نعم. وفي حال ما يبصر

---

١ – المرجع السابق:ص: ٢٤.

٢ – أي أطول فرعا، وأغصانا.

٣ – الجرجاني، عبد القاهر، ١٩٩٥م، دلائل الإعجاز، ص: ٢٢.

٤ – الجرجاني، عبد القاهر، ٢٠٠١م، دلائل الإعجاز، تحقيق: عبد الحميد هنداوي،ط:١، بيروت، لبنان:دار الكتب العلمية، ص: ٣٩.

٥ – المرجع السابق، ص: ٣٤٣.

مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأوّلين)[١]. فالنظم الكلامي عند الجرجاني محلول لغوي يتكون من اللفظ والمعنى معا، يبدأ أساسا بالمعنى في خفاء النفس، ثم يمتزج به اللفظ امتزاجا لو حدث فيه أي تغيير تغير المحلول بأسره، فمادته لفظ متآلف للمعنى.

كيفية إيجاد النظم الكلامي عند الجرجاني: تحدث الجرجاني عن كيفية إيجاد النظم الكلامي، فذكر أن سبب نطق المتكلم بكلام هو خطور المعاني بباله وترسيمها على صفحة ذهنه، فقبل أن ينطق أحدنا بكلام يخطر بباله معان، ويرتبها في نفسه، ثم يختار لها ألفاظا، ويرتبها حسب ترتيب المعنى في نفسه، فـ(لا يتصوّر أن تعرف للّفظ موضعا من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخّى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما، وأنك تتوخّى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك فإذا تمّ لك ذلك أتبَعْتَها الألفاظَ وقَفَوتَ بها آثارها)[٢]. فترتيب ألفاظ الكلام في النطق تابع لترتيب المعاني في النفس، لإنك (تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتّبها على حسب ترتّب المعاني في النفس. فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو «النّظم» الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتّفق)[٣].

كيفية ترتيب الألفاظ في النظم الكلامي: ولقد تحدث الشيخ عن كيفية الترتيب بين الألفاظ في الكلام، وذكر أنها تترتب دون عناء وإجالة تفكير في ترتيبها ؛ إذ هي تترتب مباشرة حسب ترتيب المعاني مسبقا في النفس من غير مشقة البحث والتنقيب. فالمتكلم أولا يرتب المعاني في النفس ثم يأتي بألفاظ يعبر بها عنها حسب ذلك الترتيب، فإنك (إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتّب لك)[٤] وذلك لأن الألفظ(خدم للمعاني، وتابعة لها، ولا حقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالّة عليها في النطق)[٥].

أوصاف النظم المؤدي إلى الإعجاز: ناقش الشيخ أوصاف النظم التي تسبب إعجازه، وصرح بأن للنظم المعجز صفات يبلغ بها الكلام حد الإعجاز إذا توافرت فيه، منها:

الجدة؛

المباينة؛

عموم المباينة؛

إقناع الجميع بمباينته؛

إيجاد الإحساس العام باليأس عن المقابلة.

---

١ – المرجع السابق، ص: ٦٨.

٢ – المرجع السابق، ص: ٤٥.

٣ – المرجع السابق، ص: ٤٢.

٤ – الجرجاني، عبد القاهر، ٢٠٠١م، دلائل الإعجاز، ص: ٤٥.

٥ – المرجع السابق نفسه.

ذكر بأنه (معلوم كذلك أن ليس الدليل في المجيء بنظم لم يوجد من قبل فقط، بل في ذلك مضمومًا إلى أن يبَيَّن ذلك "النظم" من سائر ما عُرف، ويُعرف من ضروب "النظم"، وما يَعرف أهل العصر من أنفسهم أنهم يستطيعونه، البينونة التي لا يعرض معها شك لواحد منهم أنه لا يستطيعه، ولا يهتدي لكنه أمره، حتى يكونوا في استشعار اليأس من أن يقدروا على مثله، وما يجري مجرى المثِْلِ لَه، على صورة واحدة، وحتى كأن قلوبهم في ذلك أفرغت في قالب واحد)[١].

وجوه التفاضل في الكلام: انتبه الجرجاني إلى أوجه التفاضل بين اثنين في الكلام، وبين أنها لا تخلو من أحد الأمور الثلاثة التالية:

اكتشاف المعنى المبتكر؛

إبداع الصورة الجديدة؛

اختراع النظم.

فالفضل والتقديم في الكلام يرجع عند الإمام (إما لمعنى غريب يسبق إليه الشاعر فيستخرجه، أو استعارة بعيدة يفطن لها، أو لطريقة في النظم يخترعها)[٢].

ما يحصل به الإعجاز من وجوه التفاضل عند الشيخ: ركز الشيخ الإمام فكره على ما يبلغ به الكلام حد الإعجاز من بين هذه الأمور الثلاثة تركيزا شديدا ، وبين أن المعيار الأوحد الذي يلعب دوره الأساسي في قضية وصول الكلام به إلى حد الإعجاز هو نظمه وحده،فقال: (ومعلوم أن المعول في دليل الإعجاز على النظم)[٣].

الخاتمة وأهم النتائج:

نظرية النظم من القضايا البلاغية التي بلغت نضجها بيد عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري، يدل ظهورها في القرن الخامس كنظرية علمية كاملة على أنها لا محالة مرت بما يشير إلى بوادرها ونشأتها وظهورها، فتتبعت جذور هذه النظرية في آراء من سبق الشيخ الجرجاني من العلماء ، لنعرف ما لعبته جهود كل واحد منهم من الدور في تطور هذه النظرية، فترتبت على جهدي نتائج مهمة لم يترتب بعضها قبل ذلك على بحث آخر في هذا المجال، وإليكم ملخص أهمها فيما يلي:

- سيبويه هو أول من ترك إشارات وملامح تدل على أنه صدرت منه نظريات لغوية تعتبر بوادر نظرية النظم وملامحها.
- ظهر مصطلح النظم في القرن الثالث الهجري لأول مرة بيد عمرو بن بحر أبي عثمان الجاحظ حيث صرح في مواضح من كتبه بأن عامل إعجاز القرآن الكريم هو نظمه.
- ظهر مصطلح النظم في رحاب النقاش حول قضية الإعجاز القرآني كرد فعل لنظرية الصرفة.

---

١ – الجرجاني، عبد القاهر، ١٩٧٦م، الرسالة الشافية، ص: ١٣٣.

٢ – المرجع السابق نفسه.

٣ – المرجع السابق نفسه.

- خالف الجاحظ بعرض فكرة نظم القرآن بصفته عاملا أساسيا لإعجاز القرآن، أستاده النظام في نظرية الصرفة، وألف بهذا العنوان كتابا كان متداولا بعد رحلته بين العلماء لمدة قرون، ثم ضاع بين ما ضاع، علَّ الجاحظ وضع فيه نظريته في النظم، فضاعت هي معه، ولم يصلنا شيء منها.
- تحدث ابن قتيبة عن النظم أيضا، واعتبره عاملا لإعجاز القرآن، وتمكن أن يتقدم في هذا المجال بشيء من الخطوات، فحدد بعض سمات النظم القرآني المعجز، ووجد أن هذه السمات منها ما يرتبط باللفظ ومنها ما يرتبط بالمعنى. و بالإضافة إلى ذلك صرح في تلك الفترة المبكرة بأهم ما يمكن أن يعتمد عليه في نظرية النظم، و هو تحديد عناصر تكوين النظم الكلامي ألا وهي اللفظ والمعنى والتأليف معا.
- وممن أدلى بدلوه في هذا المجال العلمي الواسطي والبلخي، والإخشيدي حيث ألف كل منهم في نظم القرآن كتابا بنفس هذا العنوان، لكن جميع هذه الجهود ضاعت فيما ضاعت من الجهود العليمة الأخرى.
- ثم جاء بعدهم الإمام الرماني وأضاف إلى آراء من سبقه في النظم بعض الإضافات ضمن حديثه عن التلاؤم والبيان من أقسام البلاغة، فقسم التأليف إلى مستويات ثلاثة، و بين أن النظم هو ثمرة التناسق بين ألفاظ الكلام، ونتاج تحقق التناسب بينها. كما صرح ضمن حديثه حول البيان بمقدرة التأليف الدلالية، وذكر أن دلالة التأليف بخلاف دلالة الألفاظ غير متناهية، وبها تحدى القرآن العالم بأسره.
- ومثله تحدث الخطابي عن النظم بإجمال ، وصرح بعناصره أكثر وضوحا ممن سبقه، وعبر عنها بأنها(لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم)، وأن الكلام إذا ما تضمن أصح المعاني بأفصح الألفاظ، وأحسن نظوم التأليف أعجز الناس عن مباراته ومعارضته. فالنظم عند الخطابي أحد الأمور الثلاثة التي يبلغ بمجموعها الكلام حد الإعجاز، وهو العنصر الأهم الذي يتفاوت به التعبير الكلام من شخص إلى آخر.
- وقد ألف الإمام الباقلاني كتابا في إعجاز القرآن تحدث فيه عن النظم القرآني البديع، واعتبره من وجوه إعجازه مبينا سماته التي لعبت دورها في قوة هذا النظم. لقدحاول الإمام الباقلاني أن يلعب دوره في تأسيس مفهوم نظرية النظم إلا أنه انصرف عنها وعن ترسيم حدودها ومعالمها، فلم يعرِّفه ولم يحدد حدوده، ودفع ركب هذه النظرية نحو الأمام شيئا ببيان خصائص نظم القرآن الكريم الظاهرة، واكتفى بذكرها دون أن يخوض غمارها لتحديد العناصر الأساسية التي يتشكل منها النظم نفسه الذي به ينقاس التفاضل بين أنواع الكلام .
- ثم شاء الله أن يظهر في القرن الخامس الهجري العالم الموسوعي عبد القاهر الجرجاني، ليشمر عن سواعد الجد، ويبلغ بيده الحديث عن النظم إلى النضج، ويتطور لفظ النظم من كونه مصطلحا يتداوله العلماء فيما بينهم إلى نظرية علمية بلاغية كاملة لها حدودها ومعالمها، وخصائصها. فعرف النظم وبين نواته الأولى، كما بين أن أساس التعلق بين عناصر الكلام، واكتشف الأسرار التي بها يتفاوت تعابير الناس فيما بينها، وبالإضافة إلى ذلك تحدث عن كيفية إيجاده. فالنظم عند الجرجاني يعد محلولا لغويا لحمه لفظ وسداه معنى، يبدأ بترتيب المعنى في الذهن وينتهي باختيار ألفاظ مناسبة وترتيبها حسب ترتيب المعنى في الذهن. وبالإضافة إلى ذلك تحدث الإمام عن كيفية ترتيب الألفاظ في النظم الكلامي، كما بين أوصاف النظم المؤدي إلى الإعجاز، و

وضح وجوه التفاضل في الكلام، بذلك استطاع الإمام الجرجاني أن يخرج النظم من المصطلح إلى النظرية البلاغية، ويسجلها باسمه.

فهرس المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، وأخرون، المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.
- ابن خلكان، أحمد بن محمد. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس ، بيروت، لبنان: دار صادر، ١٩٠٠.
- ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن،، تحقيق: إبراهيم، شمس الدين، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م.
- ابن كثير ، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية ، تحقيق: علي شيري،ط:١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، ط:١، الجيزة: هجر للطباعة والنشر،١٤١٧هـ– ١٩٩٧م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم،(١٤١٤هـ) لسان العرب، بيروت،ط:١، لبنان: ، دار الصادر.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، مختصر تاريخ دمشق، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع حافظ، ط:١، دمشق، سورية: دار الفكر، ١٤٠٢هـ –١٩٨٤م.
- الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط:٥، القاهرة، مصر: دار المعارف، ١٩٩٧م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: محمد عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي، ١٣٨٤– ١٩٦٤م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، لبنان: دارالجيل،١٤١٦هـ– ١٩٩٦م.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبدالرحمن، دلائل الإعجاز، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط:١، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ. ٢٠٠١م.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبدالرحمن، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر أبوفهر، ط:٣، القاهرة: مطبعة المدني، ١٤١٣هـ– ١٩٩٢م .
- الجرجاني، عبد القاهر، الرسالة الشافية ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن و تحقيق وتعليق: محمد خلف الله، ودكتور محمد زغلول سلام،ط:٣، القاهرة، مصر: دارالمعارف بمصر،(د. ت.).
- جواد، علي، المفصل في تاريخ الإسلام قبل الإسلام، ط:٤، دار الساقي،١٤٢٢هـ –٢٠٠١م.

- الحاج خليلفة، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بغداد، العراق: مكتبة المثنى،١٩٤١م .
- الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، ط:١، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م.
- الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ الأدب العربي، دار الكتاب العربي،(د. ت.).
- الزبيدي، محمد بن محمد المرتضى، تاج العروس للزبيدي، تحقيق: مجموعة المحقيقين، دار الهداية،(د. ت).
- الزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام،ط:١٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.
- الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت، لبنان: دار الكتاب العرب، ١٤٠٧.
- سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقق: عبد السلام محمد هارون، ط:٣، القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- السيرافي، أبو سعيد الحسن، شرح كتاب سيبويه، تحقق: أحمد حسن مهدلي، علي سيد علي، ط:١، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨م.
- عرفة، عبد العزيز عبدالمعطي، قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية،ط:١، بيروت، لبنان: عالم الكتب، ١٤٠٥- ١٩٨٥.
- العسقلاني، أحمد بن علي، لسان الميزان،تحقيق: دائرة المعرفة النظامية، الهند: ط:٣، ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.
- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي،ط:٨، بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- محي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، ط:٤حمص، سورية: ، دار الإرشاد للشئون الجامعية، ١٤١٥هـ.
- النديم، محمد بن إسحاق ، الفهرست، بيروت، لبنان: دار المعرفة، ١٣٩٨هـ — ١٩٧٨م.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح المختصر ،تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي،(د. ت.).